المحاضرة06: نشأة المسرح التونسي.

ابتدئ المسرح التونسي مع تواجد المستعمر الفرنسي في تونس.أي: من سنة 1881إلى سنة 1956م. ويعني هذا فترة زمنية تقدر بخمس وسبعين سنة37. وهي فترة طويلة جدا مقارنة مع الفترة التي قضاها الاستعمار الفرنسي في المغرب ، وتقدر بأربع وأربعين سنة . وتدل هذه الفترة أيضا على مرحلة تغريب المسرح التونسي، والقضاء على الكراكوز العثماني، والخضوع للعلبة الإيطالية، والانسياق وراء المسرح الفرنسي الكوميدي الشعبي الساخر، على الرغم من زيارة بعض الفرق المصرية لتونس منذ 1908م، كفرقة محمد المغربي، وفرقة سليمان القرداحي، وفرقة الشباب المصري، وفرقة الشيخ سلامة حجازي، وفرقة جورج أبيض، وفرقة رمسيس...وقد نتج عن هذه الزيارات أن تكونت فرق وجمعيات مسرحية تونسية محضة، أو فرق مسرحية مختلطة مع الفرق المسرحية المصرية، مثل: جمعية النجمة، وجماعة الشهامة العربية، وجماعة الآداب العربية، والجوق المصري التونسي، وفرقة المستقبل التمثيلي، وفرقة السعادة، وفرقة الشيخ الأكودي، وجمعية التمثيل العربي...

وقد تأثر المسرح التونسي بالمسرح المصري تأثرا كبيرا. وقد اعتمد هذا المسرح على اللغة العربية الفصحى في تقديم العروض الدرامية. ولم يعتمد على الدارجة في البداية، كما فعل المسرح الجزائري الذي كان بعيدا عن العربية الفصحى بسبب التواجد الطويل للاستعمار الفرنسي. وكانت بين الفرق المسرحية التونسية مسابقات وتنافس محمود لتقديم أجود العروض المسرحية، وجلب أكبر عدد من الجمهور الراصد.

وفي هذه الفترة الاستعمارية بالذات، اشتهر الفنان المسرحي خليفة سطنبولي، والممثلة زبيدة الجزائرية. وظهرت فرق وجمعيات مسرحية جديدة ، كالاتحاد المسرحي، والكوكب التمثيلي، وتونس المسرحية، وغيرها من الفرق والجمعيات المسرحية...وتناولت هذه الفرق والجمعيات المسرحية مواضيع درامية مختلفة ومتنوعة، مثل: المواضيع التاريخية، والمواضيع التربوية، والمواضيع الدينية والمواضيع الأدبية، والمواضيع التراثية، والمواضيع الاجتماعية، والمواضيع الكوميدية الساخرة، والمواضيع السياسية في قالب رمزي واضح...

وتعد مسرحية (صدق الإخاء) أولى مسرحية تونسية أنتجها الجوق التونسي المصري في 26 أيار (مايو) 1909م.وبهذا، تكون تونس سباقة إلى تدشين البدايات المسرحية الأولى مقارنة بالمغرب والجزائر، وليبيا، وموريتانيا. وكان أهم عائق يواجهه المسرح التونسي، ولاسيما في سنوات الخمسين من

القرن الماضي، هو غياب العنصر النسوي؛ مما أثر سلبا في جودة المسرح التونسي وجاذبيته الإقناعية والتأثيرية.

وعلى الرغم من تأثير المسرح المصري في المسرح التونسي على مستوى المؤثرات الفنية والجمالية واللغوية والسينوغرافية، وعلى مستوى التكوين والتأطير، فإن هذا المسرح قد تأثر كذلك بالمسرح الغربي، ولاسيما الفرنسي منه، واستفاد من تقنياته الجمالية، وانفتح على تياراته ومدارسه وأجناسه الدرامية كالتراجيديا والكوميديا. واتخذ العلبة الإيطالية فضاء ركحيا لتقديم الفرجة المسرحية .

وهذا ما جهل المسرح التونسي مسيجا بالمرجعية الأوروبية القائمة على تغريب المسرح العربي والخضوع لمتطلبات العلبة الإيطالية المغلقة، واحترام الوحدات المسرحية الأرسطية الكلاسيكية، والانفتاح على التجارب المسرحية الغربية التجريبية والطليعية. وأكثر من هذا، فقد شيد المستعمر في تونس كثيرا من البنايات المسرحية ، كالمسرح القرطاجني، ومسرح طابيا، ومسرح دافيد كوهين طنوجي والمسرح الإيطالي، ومسرح أرينا، والمسرح البلدي... وحضرت إلى تونس فرق مسرحية فرنسية، وفرق إيطالية، وفرق أوروبية، وفرق مسرحية عالمية لتقدم عروضها الفرجوية المختلفة.

ويمكن القول : إن المسرح التونسي قد نشأ، في الحقيقة، في بداية الستينيات من القرن الماضي، عندما اجتمع رئيس الدولة السيد الحبيب بورقيبة مع إطارات المسرح التونسي بدار الإذاعة في 7نوفمبر 1962م لتدارس وضعية المسرح، والبحث عن السبل الكفيلة لتنوير المجتمع التونسي وتوعيته تربويا وفكريا وثقافيا ، وتطوير فن المسرح فنيا وتقنيا وجماليا ، وبناء المسرح التونسي على أسس علمية ثابتة ورصينة .لذلك، أوصى الرئيس بإرسال بعثة من المسرحيين التونسيين إلى الخارج للتكوين في كل ما يخص المسرح من تقنيات ، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة.

وبعد ذلك، تكونت مجموعة من الفرق المدرسية التي وصلت إلى أربعين فرقة سنة 1965م وقد شاركت هذه الفرق كلها في مسابقات مسرحية مدرسية، شارك فيها الإناث إلى جانب الذكور ويعني هذا أن المسرح التونسي بدأ يعتمد على العنصر النسوي في تقوية النهضة المسرحية التونسية.

وبعد ذلك، تأسس مركز الفن المسرحي سنة 1966م لتكوين الأطر الشابة في المسرح وتأطيرها في مجالات التأليف، والتشخيص، والتأثيث، والسينوغرافيا، والإخراج. وكان هذا المركز يعنى بالرقص، والمسرح، والموسيقا. وقد تحول هذا المركز إلى المعهد العالي للفن المسرحي.

كما نظمت تونس، منذ أغسطس 1964م، مهرجان المسرح المغربي العربي الكبير بغية الاستفادة من التجارب الأخوية في مجال المسرح.ومن ثم، أضحى هذا المهرجان تقليدا فنيا وجماليا في

الحياة المسرحية التونسية، إلى جانب مجموعة من المهرجانات المسرحية الأخرى، كمهرجان مسرح قرطاج، ومهرجان مسرح الطفل، ومهرجان المسرح الجامعي، ومهرجان مسرح الجمعيات... وقد أثبت مصطفى الفارسي أن تونس قدمت ما بين 1966و1971م مايزيد على خمسمائة مسرحية.

ويمكن الحديث عن مجموعة من المؤسسين للمسرح التونسي الحديث أمثال: حماد الجزيري ومحمد بن عبد العزيز العقربي، وحسن الزمرلي، وعلي بن عياد، والحبيب بولعراس، والزبير التركي والمنصف السويسي...

ويعد علي بن عياد المؤسس الفعلي للمسرح التونسي الاحترافي، بعد أن أشرف على إدارة فرقة بلدية تونس منذ سنة 1963م، وقد تتلمذ علي بن عياد على روني سيمون وجان فيلار.وبذلك أمكن له أن يخلق حركة مسرحية نشيطة بتونس، ويرسي دعائم فن المسرح بكل مقوماته الفنية والجمالية الحقيقية، ويتشرب تعاليم المسرح الغربي وفق أسسه العلمية والتقنية. ويعد علي بن عياد- حسب الناقد التونسي محمد عبازه- "المؤسس الفعل المسرحي بتونس على كافة المستويات، سواء على مستوى الكتابة الدراماتورجية، أو على مستوى الإخراج، أو على مستوى الهيكلة من حيث الإنتاج والتوزيع، وأخيرا على مستوى إيجاد الاختصاصات المتداخلة في إنتاج العرض المسرحي (الديكور، الأزياء، الإضاءة، القيافة...)"

ويثبت الباحث ، في مكان آخر من كتابه النقدي القيم، أن تجربة علي بن عياد هي التي رفعت المسرح التونسي إلى عنان السماء مجدا وفخرا وتفوقا، وجعل بلده تونس تتربع على عرش المسرح العربي:" وهذه بديهة أهملها سابقوه، وتشبث بها لاحقوه، وهذا ما جعل المسرح التونسي يتصدر طليعة المسرح العربي، وهذا ما لاحظناه في العديد من التظاهرات المسرحية العربية.

ولاجدال في أن الفضل في هذا التطور، يعود إلى مرحلة التأسيس التي قادها علي بن عياد عن جدارة.كان علي بن عياد فنانا، أصيلا، مثقفا، مؤمنا بالاختصاص في الإبداع المسرحي، فجمع حوله فريقا متجانسا، ساعده على أداء رسالته النبيلة، والتي آمن بها، ودافع عنها حتى الموت، والمتمثلة في جعل المسرح يتجذر في المدينة، ويجمع سكانها بين أحضانه المستفزة والدافئة، في الآن نفسه تغرس فيهم حب المسرح بمعناه اليوناني، وتقنياته الغربية، فتبنوه، وبحثوا من خلاله عن أنفسهم، من خلال تداخل واقعهم بماضيهم، وهذا ما وجدوه في مسرحية " مراد الثالث" التي كانت نقطة التحول التأسيسي.

ومن هنا يحق لنا أن نتصور، أن علي بن عياد، هيأ بطريقة أو بأخرى، للاحقيه، أن يتقدموا بالفعل المسرحي، وهم مستندون إلى أرضية صلبة، بعد عملية التأسيس التي قام بها، وهذا ما فعلته أجيال المسرحيين التونسيين، الذين لم يتوقفوا عن البذل والعطاء، للسير قدما، بالإبداع المسرحين في مسالك التجديد، وشعاب الإضافة، وتجارب البحث المتواصل."

ومن هنا، يتبين لنا أن محمد بن عياد هو حامل مشعل تأسيس المسرح التونسي عن جدارة واستحقاق. وهو أيضا المؤسس الفعلي للمسرح التونسي في جميع تجلياته ومظاهره الفنية والجمالية والتقنية والإدارية. وفي هذا، يقول محمد المديوني:"ومن مظاهر التحولات التي حققها علي بن عياد في مجال ممارسة هذا الفن هو أنه أزال صندوق الملقن من واجهة الركح ، واستغنى نهائيا عن هذه الوظيفة، وعدل عن فتح الستار وإسداله، وتفنن في استعمال وسائل الإضاءة استعمالا وظيفيا، واستعاض عن استعمال الديكورات الجاهزة الموروثة من الفرق الفرنسية والتي كانت تستعملها أغلب الفرق في الحقبة السابقة إذا ما فتح لها باب المسرح، ومال عن الأسس التجسيدية الواقعية التي تقوم عليها تلك المناظر إلى التشكيلات الركحية الإيحائية والوظيفية التي أوكل أمر تصورها وإنجازها إلى رسامين ونحاتين تونسيين وغير تونسيين لهم باع في عوالم الألوان والأحجام وضبط أداء المثملين والممثلات ضبطا صارما سعى معه إلى إزالة صور التقريبية في الأداء وضروب التصرف والارتجال محاولا من وراء ذلك التأليف بين مكونات العرض المسرحية في رؤية إخراجية مكتملة، فكان له أن أرسى بذلك تقاليد جديدة للعمل الاحترافي قائمة على الدقة."

ويشبه علي بن عياد ما قام به الطيب الصديقي في المغرب، فقد تعلما كلاهما بفرنسا على يد جان فيلار، وعادا إلى أرضهما لتأسيس الفعل المسرحي على أسس علمية موضوعية رصينة. وحملا معا مشعل الإدارة والقيادة والإشراف على التدريب والتكوين والتأطير. وقد أشرفا كلاهما على إدارة المسرح البلدي، واحد أشرف عليها بالدار البيضاء، والثاني أشرف عليها بمدينة بتونس.

وفي ظل هذا الجو الذي خيم عليه فعل التثبيت المسرحي، تأسس المسرح المدرسي، والمسرح الاحترافي، والمسرح الجامعي، ومسرح الشباب، ومسرح الطفل، ومسرح العرائس، ومسرح الهواة، والمسرح الجهوي...وقد اهتمت وزارة الثقافة التونسية، منذ إرسائها إداريا ومؤسساتيا ووزاريا، بتطوير الفعل الثقافي بصفة عامة، والفعل المسرحي بصفة خاصة، ضمن سياسة ثقافية ديمقراطية تشاركية وجماهيرية.

هذا، وقد تحققت النهضة المسرحية بتونس بتأسيس مجموعة من الفرق والجمعيات المسرحية، مثل: فرقة بلدية تونس مع محمد بن عياد، وفرقة صفاقس مع جميل الجودى، و فرقة الكاف مع المنصف السويسي، وفرقة قفصة مع رجاء فرحات ثم عبد القادر مقداد، وفرقة المغرب العربي مع الأمين النهدي، وفرقة المسرح الجديد بقيادة الفاضل الجزيري.وبعد ذلك، ظهرت مؤسسات مسرحية، مثل: فرقة بلدية تونس للتمثيل، والمركز الوطني لفن العرائس، والمسرح الوطني الناشىء سنة 1983م، وفرقة مسرح فو مع توفيق الجبالي، ورؤوف الهنداوي، ورجاء بن عمار، والمنصف الصايم. وتأسست فرقة المسرح العضوي مع عزالدين قنون، وفتحي العكاري، وفتحي بن عزيزة، وعبد المجيد الجلولي...أما فرقة مسرح الأرض، فقد أشرف عليها الزوجان نور الدين الورغي و ناجية الورغي ، وفرقة سنمار التي أشرف عليها توفيق الجبالي ومحمد إدريس، وفرقة المسرح المثلث التي تعود رئاستها إلى الحبيب شبيل، وفرقة تياترو مع توفيق الجبالي، ودار سندباد للإنتاج الفني مع حماد المزي...

وقد" نشأت بين سنتي 1976 و1985 اثنتا عشرة فرقة خاصة، وتطور هذا العدد ليصل إلى (27) فرقة سنة 1992 وإلى (82) فرقة سنة 2001 ليصل عدد الفرق المحترفة الخاصة سنة 2008 إلى (149) مائة وتسع وأربعين فرقة. ولقد صاحبت هذه التحولات نصوص تنظيمية أصدرتها سلطة الإشراف تفاعلا مع متطلبات هذا الشكل من الهياكل وتجاوبا مع انتظارات رجال المسرح المنضوين تحتها ومع مطالبهم وبعثت لجان خاصة لتطبيق الآليات الضرورية لتنفيذ تلك الأوامر والقرارات وكان لرجال المسرح فيها مواقع. "

وهكذا، يتبين لنا أن تأسيس المسرح التونسي كان في بدايات الستين من القرن الماضي، مع دعوة الحبيب بورقيبة إلى تطوير فن المسرح، وإقامته على أسس علمية دقيقة ورصينة. ومن ثم، فقد أعطى محمد بن عياد الانطلاقة الأولى لبداية المسرح التونسي، بعد عودته مباشرة من فرنسا.